# اشتراكية الإسلام

بقلم

الدكتور مصطفى السباعي

# مقدمة الطبعة الثانيـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآلـه وصحبـــــه أجمعـــــين .

وبعد فقـد كنت ارغب ألا يعـــاد طبـع هـذا الـــكتاب للمرة الثانية الا بعد ، أن أكون قد انتهيت من كل الأبحاث التى وعدت بتحقيقها فى الطبعة الاولى ، ولكن الكتاب ماكاد يخرج الى الايدى حتى نفـذت نسخه بعد أشهر قلائل ، ثم ازداد الطلب على ناشريه ازديادا كبـــيرا مما اضطرنى الى تقديمه للطبعة الثانية دون أن أتمكن من تحقيـــــق كل ما وعدت به قراء الطبعة الاولى .

ومع هذا فقد امتازت هذه الطبعة بتحقيقات مهمة وزيادات كثيرة وأمثلة عديدة من الواقع التاريخى ، أرجو أن يجد القارىء الكريم فيهـا الفـــــــائدةو المتعـــة الروحيـة والعلميـة .

وانى لاسال الله جل شانه أن يوفقنى والعلماء الباحثين المخلصين لابراز مافى تراثنا العقائدى والحضارى من مبادىء تكفل لنا بنـــــاء نهضتنا الحاضرة على هدى من شريعة الله ، وتراث سلفنا الصـــــالح وتجـــــارب الأمم فى القديم والحديث ، وهو ولى الهداية والتوفيق .

دمشـــق

٦ من رجب الفـــــرد ١٣٧٩
٤ من كانون الثانى (( يناير )) ١٩٦٠

مصطفى حسنى السباعى
أستاذ الاحوال الشخصية فى كليتى الشريعة والحقوق
ورئيس قسم الفقه الاسلامى ومذاهبه بجامعة دمشق

# مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد واخوانه من الرسل والأنبياء دعاة الخير والحق والبر ومن تبع هداهم وعمل بهديهم وارشادهم .

«وبعد» فان مشكلة الفقر والجوع والحرمان ماتزال من أهم مشكلات الحياة منذ أقدم العصور ، وكانت مهمة الانبياء والمصلحين على اختلاف أزمانهم هى الدعوة الى انصاف البائسين ورحمة الفقراء ورفع الظلم الاجتماعى عنهم «١» .

ومن المعلوم أن أوربا عاشت خلال القرون الوسطى فى جو من التخلف الفكرى والاجتماعى يختلف تماما عما كان عليه العالم الاسلامى من حضارة زاهرة وتجارة مزدهرة ،ومستوى كريم من العيش تتجلى فيه الرحمة والتعاون والتكافل الاجتماعى بأروع صوره ومعالمه .

واستمرت أوربا فى غفلتها وتخلفها حتى فتحت أعينها على روائع الحضارة العربية الاسلامية وبدأت تحطم القيود والاغلال الى أن كانت نهضتها الحديثة ، من حيث بدأنا نحن فى التخلف والتفكك والتخلى عن حمل لواء الحضارة ، حتى أدى ذلك الى استيلاء الغرب على معظم الأقطار الاسلامية ، وبسط نفوذه الاستعمارى على جميع مقدراتها وشئونها فزاد ضعفها ضعفا وتخلفها تخلفا وفقرها فقرا .

وشهدت اوربا فى القرن التاسع عشر والقرن الحاضر حركات فكرية وسياسية متعددة تتوخى كلها معالجة التفاوت الاجتماعى فى بلادها ومسح جراح الجماهير التى كانت تكتوى بجحيم الظلم الاجتماعى ونار الحرمان والمهانة والضياع ، وكتب لبعض هذه الحركات النجاح فى اقامة دولة تحكم الشعب بمنهاجها الذى آمنت به ، كما كتب لبعض الحركات الاخرى أن تنجح فى حمل كثير من حكومات العالم على سن القوانين لانصاف البائسين والعمال والفلاحين وغيرهم من ذوى الدخل المحدود وكبح جماح ذوى الثروات الواسعة والاراضى الشاسعة ،واشراف الدولة على رأس المال ووسائل الانتاج .

---

(١) رأينا أن نتوسع فى هذا الموضوع فى هذه الطبعة فافردنا له بحثا مستفيضا يراه القارىء فيما بعد ووضعنا مكانه هذه الفذلكة التاريخية .

وافقنا من غفلتنا الطويلة على ضجيج الحضارة الغربية الحديثة ومخترعاتها وتقدمها ووجدنا أنفسنا نعيش نحن سكان الشرق العربى والاسلامى فى مستوى من العيش أدنى مما تتطلبه الحياة الانسانية الكريمة ، وأدنى مما هو عليه مستوى المعيشة فى أمم الحضارة الغربية وسرى الينا تيار الأفكار الاصلاحية التى قامت فى الغرب منذ قرنين واشتدت فى منتصف القرن التاسع عشر واصبحت حقائق تشريعية منذ مطلع هذا القرن حتى منتصفه الذى نعيش فيه .

وكما هى سنة الحياة من افتتان الضعفاء بالاقوياء فى كل ما ياتى عنهم من خير أو شر ، فقد ساد الفكر الثقافى فى عالمنا العربى والاسلامى جو من الاعجاب بالحركات الفكرية السائدة فى عالم الحضارة ، يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدى وحضارى من حيث صلاحه للحياة الحديثة ، وامكانه مجاراة التطور العالمى فى كل شئون الحياة وخاصة فى الميادين الاقتصادية والمعاشية ، بل تسرب الى بعض العقول التى تدعى الثقافة والتحرر والتفكير العلمى فكرة خبيثة ما يزال يبثها المستعمر الغربى فى أوساطنا الثقافية منذ قرن أو أكثر وهى أن سر تأخر الشرق ــ وخاصة العربى والاسلامى ــ هو اديانه التى كانت ــ على ما يزعمون ــ من اكبر عوامل تأخره وانحطاطه ، بل أخذ بعضهم يجهر بأن هذه الأديان مخدرة للشعوب خادمة للراسمالية والاقطاع مثبتة لدعائم الاستعمار .

ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذى يدل على جهل علمى وتاريخى فاضح ، قد أخذ يخفت شيئا فشيئا منذ ابتدات الثقافة فى بلادنا تتحرر من نفوذ الاستعمار وتوجيهه وسيطرته على مناهج التعليم فى بلادنا المتحررة ، وبدأنا نبحث فى عقائدنا وتراثنا بحث العقل النير الذى يثق بقدرته على البحث والتمحيص .

ولكن سير الاحداث فى العالم جعل لذلك الرأى قوته ــ لا فى الداخل ــ بل فى الخارج بحيث اصبح دعاته يجدون مجالا لتحويل الأنظار عن الحقيقة التى جهلوها الى الجهل الذى البسوه ثوب الحقيقة فى بعض البلدان وعند بعض الناس حيث تدعمه القوة ويؤيده النفوذ والسلطان .

وقد أسهم كثيرون من أفاضل العلماء والمصلحين منذ عصر المصلح الاسلامى الكبير السيد جمال الدين الافغانى وتلميذه وزميله الامام محمد عبده رحمهما الله ، حتى وقتنا هذا ، فى جلاء تلك الحقيقة التى جهلها دعاة المذاهب المستوردة الدخيلة على شرقنا العربى والاسلامى الى أن استوى تحررها العلمى على قدميه واستطاع أن يرد الباطل ويكشف الزيف ويجلو جمال الحق للبصائر والأبصار .

واليوم اذ أتقدم بهذا البحث « اشتراكية الاسلام » أرجو يكون لى عند الله جل شأنه ثواب العاملين على خدمة الحق ودحض الباطل وكشف الشبهات والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقبل أن أبدأ فى خوض غمار المشكلة التى أتحدث عنها فى هذا الكتاب . أود أن أذكر الملاحظة التالية :

— ١ —

لقد سميت القوانين والاحكام التى جاءت فى الاسلام لتنظيم التملك وتحقيق التكافل الاجتماعى «باشتراكية الاسلام» ، وأنا أعلم أن بعض الغيورين على الاسلام يكرهون هذه التسمية ، لأن الاشتراكية فى رأيهم هى « موضة » هذا العصر فلا يصح أن نبادر الى القول بالاشتراكية الاسلامية ، تمشيا مع هذه « الموضة » ولأنه قد يأتى زمن تبطل فيه هذه الموضة ويسود القول بمذهب اقتصادى آخر ، فنضطر حينئذ الى العدول عن القول باشتراكية الاسلام ، وهنالك من يحاذر القول بالاشتراكية الاسلامية خوفا من أن تستغل المذاهب الاشتراكية ـ وخاصة الشيوعية منها ـ هذه التسمية لتستخدمها فى الدعوة الى مذاهبها وأيضا فالاسلام نظام مستقل قائم بذاته وقد سماه الله « اسلاما » فلا يجوز لنا أن نسميه باسم جديد ! . .

ومن الناس من ينكر أن تكون فى الاسلام أية نزعة اشتراكية يقول بعضهم هذا تشويها لسمعة الاسلام وصدا عنه ، كالشيوعيين فان مصلحتهم الحزبية تحتم عليهم أن يؤكدوا فى الأذهان أن الشيوعية وحدها هى الاشتراكية «العلمية» الصحيحة ، وما عداها فزيف وباطل ويقوله بعضهم ظنا منهم أن الاسلام دين «رأسمالى » ! وهؤلاء هم الجاهلون بالاسلام مع حبهم له ! ويقوله آخرون خدمة للغربيين ومن يدور فى فلكهم من الاغنياء وذوى الثروات والملكيات الكبيرة وهؤلاء هم المتاجرون بالدين الذين يضعون أنفسهم فى خدمة من يستأجرهم .

لقد اخترت القول باشتراكية الاسلام مع العلم بكل ما يقول هؤلاء لانى لا أعتقد أن الاشتراكية « موضة » ستزول ، بل هى نزعة انسانية تتجلى فى تعاليم الأنبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر ـ وخاصة الشعوب المتخلفة ـ الى تحقيقها لتخلص من فواجع الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقى الفاحش المزرى بكرامة الانسان ، وليست حقيقة الاشتراكية هى «التأميم» ولا « انتزاع رأس المال » ولا « تحديد الملكية » ولا « الضرائب التصاعدية » بل هذه كلها وسائل يراها دعاتها الطريق الصحيح لتحقيق هدف الاشتراكية .

ان هدف الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من استغلال رأس المال للاثراء على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم ، واشراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية ومراقبتها له ، وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين بحيث تمحى مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتا فاحشا يقترن فيه الجوع والفقر والمرض والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخلقى .

وهذا الهدف لا أعتقد أن واحدا ممن يعرف الاسلام ويفهم روحه على وجهها الصحيح ينكر أن الاسلام قد وضعه نصب عينيه فى كل تشريعه ، ووضع له من التشريع ما يكفل تحقيقه على أحسن حال ، فاذا كان الأمر كذلك وكان هذا الهدف هومما لاسبيل الى رجوع الانسانية عنه وستظل تكافح فى سبيله حتى تصل اليه ، كان من الصد عن دين الله والظلم لشريعة الاسلام وللحق أن ننكر القول باشتراكية الاسلام أو نتجانب هذه التسمية .

وما دام الناس فى مختلف الشعوب يتوقون الى تحقيق ذلك الهدف ويتهافتون على المذاهب الاشتراكية المعروفة ، اعتقادا منهم بأنها هى الطريقة الوحيدة لتحقيقه ، أفلا يجب علينا أن ندلهم على « طريق آخر » لايعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم ، وهو طريق أكمل منهجا واكثر استقامة وأبعد عن مساوىء تلك المذاهب الاشتراكية وعيوبها وماذا يفعل الذين يعتقدون بالحق حين يجدون الناس يبحثون عنه ؟ الايسلكون كل سبيل مشروع للدعاية له ولفت الانظار اليه ؟ فلماذا نحجم عن لفت أنظار الناس الى طريق الاسلام فى تحقيق هدفهم الذى هوهدف الانسانية الكريمة فى كل عصورها ؟

ان ما نعرضه فى هذا البحث هو « التشريع الاسلامى » الذى جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لاتزويق فيه ولا تحريف ، وهو تطبيق ذلك التشريع نظريا فى أحكام الفقه ، وعمليا فى تاريخ الدولة الاسلامية فى مختلف عصورها ، فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم « العدالة الاجتماعية » أو « التكافل الاجتماعى » أو « محاربة الفقر » أو ما شابه ذلك ، أما نحن فنسميه بالاسم الذى يحبه الناس ويرونه أملهم الوحيد فى الخلاص من شقائهم واضطراب اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وبذلك نكون قد امتثلنا أمر الله تعالى « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) » وما هى الحكمة ان لم تكن دعوة الناس الى الحق والخير بأسلوب يصغون اليه ويأنسون به ؟

---

( ١ ) سورة النحل : ١٢٥ .

## - ٢ -

قال لى مرة نائب فى المجلس النيابى السورى الاسبق ١٩٥٠ : « انى لاعجب كيف تقولون الاشتراكية الاسلامية » ، ان الاشتراكية هى التأميم ، والاسلام لا يقول بالتأميم ولا يعرف شيئا اسمه « التأميم » لأن المقصود بهذا اللفظ هو استيلاء الدولة على المصانع ، ولم تكن الصناعة ولا المصانع موجودة فى عصر الاسلام ! . »

فأجبته : انى لاعجب من جهلك بالاسلام وبالاشتراكية على السواء! فلا انت تعرف حقيقة الاشتراكية ، ولا انت تعرف شيئا عن الاسلام ، فالدخول معك فى نقاش حول هذا الموضوع لايفيد ! على انه يلزمك بناء على رأيك هذا أن تنكر القول بالاشتراكية المسيحية من باب أولى ، مع أن الاحزاب الاشتراكية موجودة فى أكثر بلاد الغرب ، ولا اظن انك تدعى جهلها بالمسيحية أو الاشتراكية ! فسكت ولم يحر جوابا .

وكنا مرة فى مجلس يضم نفرا من كرام اساتذة الجامعة وغيرهم ، وجرى الحديث حول الاشتراكية وعما اذا كان الاخذ بها خيرا لبلادنا، وبينت لهم رأيى وتطرقت الى اشتراكية الاسلام ، فقال بعض الحاضرين متهكما : قبل أن ينتشر القول بالاشتراكية فى أوروبا لم نكن نسمع أحدا ينادى بالاشتراكية فى بلادنا، اما الآن فقد أصبح كل انسان يدعيها. حتى الاسلام اصبح اشتراكيا ! فكان مما قلت : بعد أن تم اتصالنا بالحضارة الغربية ، وبدأنا نتجه الى اصلاح أوضاعنا السياسية والاجتماعية ، كان لابد من أن نتأثر بالاتجاهات الفكرية السائدة فى الغرب وليس العجيب أن نستفيد من الغرب طرائق صالحة نقتفى أثرها فى نهضتنا الحاضرة ، وأن نأخذ بالحق وندعو اليه اذا اقتنعنا به ، ولكن العجيب أن يكون هذا الحق وذلك النهج الصالح لرفع مستوى الحياة موجودا عندنا فى تشريعنا وتراثنا الحضارى بأكمل وأتم مما عند الغربيين ثم نتنكر نحن لذلك وننكر على من يدلنا عليه !

وقال انسان يوما ما : ان اشتراكية الاسلام تقوم على « الصدقة » على الفقير ، واما نحن فنريد أن « نمحو الفقر من المجتمع » .

اما أن تكون اشتراكية الاسلام هى « الصدقة » فهذا ما نجد الرد عليه فى هذا الكتاب واما أن يكون الهدف الذى ينفرد بالدعوة اليه ذلك الانسان هو « محو » الفقر . فهذا جهل بالاسلام وبسنة الحياة وتغرير بعقول الناس !

ان « الفقر » ان كان هو المهانة والجوع والعرى والمرض والتشرد فهذا مما محاه الاسلام من مجتمعه قبل أربعة عشر قرنا لا بالصدقة ، بل بالتشريع وسلطان الدولة كما سنطلع عليه فى هذا الكتاب . وان كان «الفقر» هو عدم الغنى والاثراء . أو بالاحرى عدم تساوى المواطنين فى الرفاهية ومستوى المعيشة . فهذا مما لاسبيل لقوة فى الارض الى محوه الا بأن تجعل الناس جميعا متساوين فى الفقر والحرمان .

لقد رأينا بأعيننا فى الاتحاد السوفيتى وهو الدولة التى تمثل اقصى اليسار فى المذاهب الاشتراكية كيف يتفاوت فيها الناس فى مستوى

المعيشة ، وفى الدخل الشخصى ، وفى الادخار ، وفى التمتع بمتطلبات الحياة ، فمن عامل دخله الشهرى ٥٠٠ روبل فى الشهر ، الى رئيس جامعة راتبه الشهرى ١٥٠٠٠ روبل فى الشهر ، ومن مواطن يسكن غرفة صغيرة فى بناء متواضع ، الى وزير أو موظف كبير أو حزبى بارز يسكن قصرا فخما وله سيارة فخمة ! بل رأينا بأعيننا فى قلب موسكو « الشحاذين » يقفون على باب مسجد موسكو يمدون أيديهم بالسؤال ويعطيهم الناس ما يجودون به عليهم ! وقد التقطت بنفسى صورا لهذا المنظر لا تزال محفوظة لدى ، واذن فلا الشيوعية ولا دولتها الكبرى التى قامت منذ اثنتين وأربعين سنة ، ادعت انها محت الفقر بمعنى عدم تفاوت الناس فى المعيشة ، بحيث أصبحوا جميعا يعيشون فى مستوى واحد ، لانه لاسبيل الى ذلك مادام الناس يتفاوتون فى المواهب والانتاج والقدرة على الاكتساب ، فمن ادعى بعد ذلك أنه يريد أن يمحو الفقر بهذا المعنى ، فقد غرر بالعقول ، واتخذ أسلوب «الدعاية» لمذهبه لا أسلوب المنطق واحترام الحقائق !

ان المهم ـ وهذا ما تسعى اليه الانسانية جاهدة ـ هو محو المهانة والحرمان فى المجتمع ، وأن يحصل كل انسان على مستوى من العيش يليق بكرامة الانسان ، وفى هذا تتنافس المذاهب الاشتراكية ، وفى هذا يقدم الاسلام «برنامجه» للوصول الى هذه الغاية ، فمن كان عنده أفضل من هذا البرنامج ، فليتفضل بعرضه على الامة بأسلوب العلم والعلماء ، لا بأسلوب التجار والمبهرجين .

## - ٣ -

لما كنت فى زيارة الاتحاد السوفييتى مع وفد جامعة دمشق بدعوة من جامعة موسكو فى حزيران «يونيه» عام ١٩٥٧ اتيح لى أن ابحث مع عدد من المستشرقين السوفيت ورجال الخارجية السوفييتية ، آراءنا فى الاسلام والشيوعية ، فشرحت للمستشرقين السوفييت فى مقرهم بموسكو خلال جلسة استغرقت مايزيد على ساعتين ، اشتراكية الاسلام ، وكيف استطاعت أن تقيم فى العصور الوسطى مجتمعا اشتراكيا كان هو أول مجتمع اشتراكى فى العالم ، فأبدوا دهشتهم لذلك ، وذكرت لهم من الادلة والشواهد ما حملهم على الاعتراف أخيرا بهذه الحقيقة ، ثم حاول بعضهم أن يدحض الافتراءات التى تنشر عن النظام الاجتماعى فى الاتحاد السوفييتى ، فكان مما قال : انهم يزعمون أن الشيوعية تحرم الملكية الشخصية ، وها أنا أريك دفترى الخاص بتوفيرى المدخر فى البنك ، فاذا رصيده المسجل باسمه يزيد على سبعة آلاف روبل ، فسألته : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى كما وضعه كارل ماركس ؟ وبعبارة أخرى : هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعى ؟ أم أنتم تطبقون نظاما اشتراكيا ؟ فتبسم وقال : نحن لانطبق الشيوعية كما هى ! ثم تابع حديثه فقال : ويفترون علينا بأننا نحارب الاديان مع أن عندنا جمهوريات تعداد سكانها المسلمين ٣٣ مليونا ، ولعلك شاهدت المساجد والكنائس كيف هى مفتحة الابواب للمتعبدين فى أى وقت يشاؤون ! قلت : هذا صحيح ، ولكن هل الشيوعية تعترف بالله

والديانات ؟ وهل تسمحون للآباء أن يعلموا أولادهم الدين فى مدارس خاصة ، وهل تسمحون لخطباء المساجد مثلا أن يشرحوا نظام الاسلام الاشتراكى للمسلمين فى المساجد ؟ وهل سمحتم بافتتاح المساجد والكنائس بمجرد قيام الحكم الشيوعى ؟ أم أنكم فعلتم ذلك بعد أن ربيتم — خلال اربعين عاما من الحكم الشيوعى — أجيالا من الشباب على الفلسفة الشيوعية فلم يعودوا يرتادون أماكن العبادة من تلقاء أنفسهم سخرية من العبادة وشعائرها ، ولم يبق الا الشيوخ الذين ينقرضون شيئا فشيئا : والمسألة كما قال لنا شيوعى كبير فى بلغاريا : أن الدين عندنا ليس ذا مشكلة لانه يصفى نفسه ؟! فسكت محدثى المستشرق ولم يقل شيئا .

وفى خلال الحفلات التكريمية التى كانت تقام لنا فى موسكو أتيح لى أن أجتمع بعدد من كبار رجال وزارة الخارجية السوفيتية منهم السيد « سيمينوف » وكيل وزير الخارجية ، والسيد « زايتسف » رئيس قسم الشرق الاوسط فى الوزارة « سفير الاتحاد السوفييتى فى العراق الآن» وكنا نتحدث عن العلاقات بين البلاد العربية والاتحاد السوفييتى : واذكر أننى قلت فى الحفلة الختامية التى أقامتها لنا جامعة موسكو قبيل مغادرتنا الاتحاد السوفييتى بأيام .

اننا نرحب بهذا التعاون القائم بين الاتحاد السوفييتى وبين البلاد العربية فى الميدان السياسى ونرجو أن يظل هذا التعاون « خالصا » مستمرا لا يتأثر « بالتقلبات السياسية » وأذكر أن السيد سيمينوف قال لى : أحب أن تتأكدوا بأن مساعداتنا لكم ضد الاستعمار الغربى مستمرة،لأن مصلحتنا ومصلحتكم تقتضى ذلك ! وقبيل مغادرتنا موسكو بيوم واحد اجتمعت بالسيد « زايتسف » فى دار وزارة الخارجية السوفيتية لمدة ساعتين تقريبا،وتناول البحث فيما تناول من موضوعات موقف البلاد العربية من الشيوعية والشيوعيين ، وكان الحديث بيننا صريحا جدا فكان مما قلت له ، اننا فى البلاد العربية لا يمكننا أن نلتقى مع الشيوعيين لعوامل كثيرة،منها أن سياستهم الوطنية ليست مستقرة أى ليست مستوحاة من مصلحة الشعب بل من مصلحة حزبهم قبل كل شىء ، ثم هى تتوجه بتأثير خارجى ! ومنها موقف الشيوعيين فى بلادنا من الدين ، انكم اذا كنتم قد اضطررتم للثورة على الدين فى بلادكم حين قيام الحكم الشيوعى ، فلان الدين كان حينئذ يمثله عندكم رجال سخروا أنفسهم لخدمة القيصر والاقطاع ضد مصلحة الشعب ، أما فى بلادنا فان الاسلام الذى يعتنقه ٩٨٪ من الشعب العربى له مبادىء واضحة صريحة لايعيش معها أقطاع ولا ظلم اجتماعى ، حتى الدين المسيحى فى بلادنا لم يقف موقف التأييد للظلم الاجتماعى كما كان الامر عندكم فى العهد القيصرى ، وأزيد على ذلك أننا لا نزال فى معاركنا المتصلة مع الاستعمار،والدين يمدنا بأقوى سلاح معنوى يدفع الجماهير للاستشهاد والكفاح ضد الاستعمار ، وضربت له المثل بالجزائر ، وقلت له : ان الجزائريين ما برحوا منذ بدء الاستعمار الفرنسى حتى الآن — أى منذ أكثر من ١٣٠ عاما — فى ثورات متواصلة ضد الفرنسيين بما لم يحدث مثله فى تاريخ أمة على وجه الارض ، هذا مع أن الفرنسيين أكثر منهم

عددا وأقوى سلاحا وأوفر مالا وأكثر علما ، فهل يمكن أن نرى سببا لعدم استطاعة الكثرة والقوة والمال والعلم الانتصار على القلة والضعف والفقر والجهل فى الجزائر خلال مائة وثلاثين سنة الا الدين الذى يعتنقه الجزائريون ؟

فأطرق مليا ثم قال : أنا معك فى هذا .

قلت له : فتصور الجريمة التى يريد أن يفعلها الشيوعيون فى بلادنا حين يتم لهم مايريدون من القضاء على الدين فى نفوس أبناء الشعب ؟ .. ان النتيجة الاولى لذلك بالنسبة الينا هى القاء سلاحنا الفعال فى وجه الاستعمار ، والقاء الجزائريين السلاح ليكونوا غنيمة باردة للفرنسيين ، ولهذا فنحن لا نرى فى موقف الشيوعيين فى بلادنا من الدين جريمة عقائدية فحسب ، بل هى جريمة وطنية كبرى لها أبلغ الأثر فى سير نضالنا الوطنى ! (١)

هذا عدا أن نظام الاسلام الاشتراكى يحقق لنا كل ما نحتاج اليه من اصلاح لأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولا يضيق ذرعا بكل تجديد للحياة الحرة الكريمة ، مع الاحتفاظ بأهم مقومات الحياة فى كل أمة وهو الدين الاخلاق . ولذلك فأؤكد لك أن بلادنا لن تختار الشيوعية عقيدة وعندها أديانها ولها شخصيتها وماضيها وطموحها ، واذا كان الشيوعيون العرب يقولون لكم غير هذا فانهم يضللونكم !

كان هذا فى صيف عام ١٩٥٧ يوم أن كان الاتحاد السوفييتى يناصر قضايانا فى المجال الدولى ، وكنت ممن ينادون ـ منذ عام ١٩٤٨ على الاقل بالتعاون معه فى الميادين السياسية والاقتصادية ـ كوسيلة من وسائل الانتصار فى معركتنا ضد الاستعمار الغربى ـ على أن نحتفظ بعقائدنا وحيادنا .

وقد جهرت بمثل هذا الرأى من قبل فى عام ١٩٥٤ أثناء انعقاد المؤتمر الاسلامى المسيحى العالمى فى بحمدون ، وسيرى القارىء فى اخر الكتاب نص هذا الخطاب الذى ألقيته فى المؤتمر بعنوان « جواب الاسلام على الشيوعية . »

## ـ ٤ ـ

زرت أوروبا أكثر من مرة ، وزرت الاتحاد السوفييتى وبعض بلدان أوربا الشرقية ، وفى هذه الرحلات كلها أتيح لى أن أتعرف على حقيقة الحياة الاجتماعية فى العالم الغربى والعالم الشيوعى ، وقد خالطت

---

( ١ ) وأزيد على ذلك الان أن أحد الشيوعيين الرسميين فى بلغاريا قال لنا ـ عام ١٩٥٦ ـ ونحن نتحدث عن موقف الشيوعيين من الدين حين قيام الحكم الشيوعى فى روسيا عام ١٩١٧ : اننا هنا فى بلغاريا لم نتعرض للكنيسة الارثوذكسية السائدة فى بلغاريا ، لانها كانت تشارك فى الحركات الوطنية طيلة الاحتلال التركى ، بل كانت الاديرة والكنائس مقرا لكل الحركات الثورية التى قامت ضد ذلك الاحتلال .

فيهما مختلف الطبقات ، وكنت حريصا على أن استفيد من كل ما أرى وأسمع ، وأن أنظر الى الامور نظرة باحث منصف ، ومع انى اعجبت بكثير من مظاهر الحياة فى أوروبا الغربية وفى العالم الشيوعى ، فان الذى اقتنعت به أن الحضارة الغربية بقسميها الرأسمالى والشيوعى حين أهملت الروح فى بناء أسسها الحضارية ، أفقدت الانسان مناعة كبرى ضد القلق والاضطراب ، وأن الشيوعية زادت على ذلك أنها افقدت الانسان مثله العليا التى تتخطى حدود الحياة المادية من مأكل وملبس ومسكن ، لقد اقتنعت بأن الانسانية تنشد حضارة من طراز اخر تجد فيها استقرارها النفسى ولا تفقد مثلها العليا (١)

— ٥ —

ان اشتراكية الاسلام لو طبقت فى مجتمعنا لاستفاد منها جميع المواطنين من مسلمين ومسيحيين ، لانها كما سيرى القارىء وضعت ليستفيد منها كل مواطن ، فليس الاخذ بها انتصارا لدين على دين ، ولا افتئاتا من المسلمين على المسيحيين ، أنها ثروة تشريعية رائعة لو أشرفت على تطبيقها عقول مرنة نيرة لكان لنا منها أروع نظام يستهوى القلوب والانظار فمن الخطأ الكبير تجاهلها فى نهضتنا الحاضرة .

ان القومية العربية لا يمكن أن تنقطع عن الماضى ، بل انها تستمد منه عناصر قوتها ومناعتها ، وفى الماضى تراث وحضارة ، فماذا يمنع من الاستفادة منهما ؟ ليزعم فى شأنهما وقيمتهما من شاء ، فلن يستطيع أحد أن يزعم أنهما غثاء لا خير فيهما أو أنهما ماتا مع الزمن الذى مضى فلماذا لا نستفيد مما فيهما من خير وحياة ؟

ان الذى يبنى بيتا للسكن — لا للايجار — يتخير أجود مواد البناء قوة وجمالا ، ولو كلفه ذلك مالا وعناء ، والقومية العربية بيت للسكنى. لنسكن فيه نحن وأبناؤنا والاجيال اللاحقة بنا ، وأبناؤنا وأحفادنا لايحاسبون اذا كانت فى مواد البناء عناصر غريبة غير صالحة ولا جميلة أما نحن فسوف نحاسب حسابا عسيرا ، وأول من يحاسبنا فى هذه الحياة هم أبناؤنا وأحفادنا !

اذا كان المانع من الاستفادة من الاسلام وحضارته ، خوفنا من أن يعود التعصب الطائفى الى الوجود ، فذلك خوف «باطل» ، لأن التعصب لم نصنعه نحن ، ولم يكن له وجود يوم استلمت قيادة حضارتنا الايدى الطاهرة ، والعقول النيرة ، والنفوس المخلصة فى ايمانها ، ونحن لا نريد أن تقودنا اليوم غير أمثال تلك الايدى والعقول والنفوس .

واذا كان المانع هو الخوف من أن يرمينا الغرب بالتعصب ، فهو خوف «قاتل» . انه يمنعنا من أن نحكم البناء كما ينبغى وكما يدوم طويلا ، لقد كان الغرب يحاول أن يمنع حركاتنا التحررية من المضى فى

---

(١) ظهر للمؤلف بعد الطبعة الأولى لهذا الكتاب كتاب « من روائع حضارتنا » وفيه توضيح وتأكيد لهذه الحقيقة .

طريقها بتهمة « التعصب الوطنى » وكان يخاف من ذلك ضعاف الايمان بوطنهم وبأمتهم ، ولقد مضى هؤلاء الى سبيلهم ، واستقامت حركاتنا التحررية وآتت ثمارها ، منذ نشأ فينا جيل من القادة لا يخاف من تهمة « التعصب الوطنى » بل يباهى بها ، وتهمة « التعصب الدينى » هى من تلك المحاولات التى يحاول بها الغرب أن يمنعنا من البناء القوى المتكامل ، ان الغرب متعصب «لنفسه» فى كل ما يعود عليه بالخير ، متعصب «علينا» فى كل مايعود علينا بالخير ، فلنمض فى طريقنا غير مصغين الى ذلك المتعصب «للباطل» ليمنعنا من الاخذ «بالحق» !

وان كان المانع هو الخوف من متاعب الماضى القريب ، فنحن نتساءل : أليس من سبيل للاستفادة من هذا التراث العظيم مع تجنب تلك المتاعب ؟ ان بعد النظر والسياسة الحكيمة والثقة المتبادلة كفيلة بأن تجنبنا كل الصعاب . فهل جربنا ذلك ؟

واذا لم يكن المانع شيئا مما ذكرناه ، لم يبق هنالك الا سبب واحد وهو أن بعض الناس لا «يحبون» هذا التراث لعوامل فكرية وعقائدية ، ولا « يتجاوبون » مع تلك الحضارة لاسباب وراثية وتاريخية ، فلنترك علاج هؤلاء الى الزمن . ولكن ما عذر الآخرين اذن ؟

## - ٦ -

ان هذه القوانين والمبادىء التى تنتظمها اشتراكية الاسلام أساس صالح متين لاقامة مجتمع اشتراكى فى بلادنا تتجاوب الامة فى مشاعرها وعقائدها مع قوانينه ونظمه وفى ذلك تعجيل بتطوير مجتمعنا الى المستوى الذى تنشده نهضتنا العتيدة واختصار من الجهود التى تبذل لاقناع الشعب بتقبل نظم الحياة الاشتراكية الجديدة عن غير هذا السبيل ان الشعب أكثر استعدادا لتقبل المبادىء التى تنتظمها اشتراكية الاسلام . ولتطبيقها بحماس وايمان لاينكر أثرهما فى نهضات الشعوب. وللوقت قيمته فى تاريخ النهضات وخاصة فى عصرنا الحاضر ، ونحن فى هذا العرض الواضح للاشتراكية الاسلامية نرجو أن نكون قد أسهمنا فى اقامة مجتمعنا على أساس اشتراكى سليم . وفى تخليصه من الرواسب السيئة التى خلفها الجهل والفوضى وفساد الاخلاق فى العصور المتأخرة من تاريخنا .

وفى الاستفادة من اشتراكية الاسلام اثبات لشخصيتنا المستقلة، وتحرير لأمتنا من التبعية الفكرية والسياسية لاية دولة من دول العالم، وتحصين قوى من «الغزو» الفكرى الذى يجب أن تبذل الجهود الصادقة لوقاية جماهيرنا من أخطاره . وفيها أيضا أقوى رد على تلك «المحاولات» التى تبذل لربطنا بعجلة جديدة بعد أن بدانا نجمع قوانا المبعثرة، ونسلك الطريق الصحيح للوحدة الكاملة والسيادة التامة على أرضنا ومقدراتنا

## - ٧ -

كنت أود أن أتوسع فى بحث « الواقع التاريخى » فى الدولة والمجتمع والفرد المسلم ، لولا ضيق المجال ، كما اننى لم أتحدث عن

حركة ابى ذر التى قام بها فى عهد عثمان رضى الله عنهما ، لانى لم استكمل بعد دراسة أسبابها وحقيقتها وتمحيص النصوص التاريخية الواردة بشأنها بالشكل الذى أطمئن اليه وأقتنع به ، وأيضا فلم أتعرض لبعض الحركات السياسية التى قامت فى العصر العباسى واتخذت شكلا فوضويا شيوعيا كحركة القرامطة وأرجو أن أضيف هذه الابحاث كلها مع التوسع فى كثير مما أجملته فى هذه الطبعة الى الطبعة القادمة باذن الله .

## - ٨ -

وأخيرا فان هذا البحث الذى أقدمه فى هذا الكتاب هو نص المحاضرة التى ألقيتها على مدرج جامعة دمشق بتاريخ ٢١ من رمضان ١٣٧٨ و ٣٠ آذار ١٩٥٩ . فى سلسلة المحاضرات الجامعية العامة لعام ١٩٥٩ .

والله الموفق للصواب ، ومنه نستمد العون والهداية .

**دمشـــق**

ذو القعدة ١٣٧٨
( مايو ) ١٩٥٩

**مصطفى حسنى السباعى**

# مقدمة المحاضـــرة

مما يتميز به عصرنا الذى نعيش فيه ، أنه عصر الاشتراكية ، فكثير من الدول تدعيها ، والاحزاب المنتمية اليها منتشرة فى اكثر بلاد العـالم وجماهير الشعوب تحلم بها وتتحمس لها ، واكثر مفكرى العالم يرونها الطريق الوحيد للخـلاص مما يعـــانيه الجنس البشرى من اضطراب اقتصادى وشقاء اجتماعى ، ولكن ماهى الاشتراكية ؟

انها ــ كما تعلمون ــ متعددة المذاهب من متطرفة الى أقصى اليسار كالشيوعية ، ومن معتدلة ومن قريبة الى اليمين . وأجمل ما قيـل فى تصوير هذا التعدد : أنها تشبه مخلوقا له عشرون رأسا ، ولست الآن فى صدد التحدث عن مذاهبها والفروق بينها ، فذلك مالايتسع له وقت كوقت حديثنا هذا ، ويكفينا أن نقول : انها جميعا تشترك فى الايمـــان بوجوب أشراف الدولة على استثمار المال فى المجتمع ، وتحقيق التكافل الاجتماعى لجميع أبنائه ، حتى يتسنى لهم الاشتراك فى حياة تضمن فيها كرامة الانسان ، واطمئنانه الى حاضره ومستقبله .

ونحن كأمة لها تشريع عالمى انسانى ، وحضارة اضاءت للعـــالم طريقه عشرة قرون أو تزيد وهى الآن تتأهب للقيام بدورها الحضـارى من جديد ، من حقنا أن نتساءل : ماهو موقف الاسلام من الاشـتراكية الحديثة ؟ ان بعض الناس يزعمون أن الاسلام بعيد عن « التفـــكير » الاشتراكى ، لانه أقر « الملكية الشخصية » وسمح « بالارث والملكيات » الزراعية الكبيرة بل قد زعم بعض الناس أن الاسلام « رأسمالى » يسمح للغنى أن يتصرف بماله كما يشاء ، وقد التقى على هذا الزعم أعـــداء الاســلام من دعاة الشيوعية ، مع بعض أتباع الاسلام تملقا للاقطاعيـة والرأســـــــــمالية :

فما هو الحق فى هذه المسألة ؟ ان الجواب عنه هو موضوع هـذا البحث ، وسترى أن ذينك الفريقين من أعداء الاسلام وابنائه قد ظلمـاه ظلما كبيرا ، وأن له « اشتراكية » واضحة المعالم ثابتة الدعائم ، تتميـز عن كل المذاهب الاشتراكية الحديثة فى جملة مبادئها ، وأكثر قوانينهـا وتشريعـــــاتها .

# موقف الاديان

## من الفقر

تتفق الديانات السماوية الثلاث : الاسلام والمسيحية واليهودية فى اباحة الملكيات الشخصية والاعتراف بها ووجوب حمايتها .

وتتفق ايضا فى الاعتراف بواقع الحياة العلمية فى كل العصور من تفاوت الناس فى الثروة ، ووجود الغنى والفقر فى المجتمع .

وهى حين تعترف بذلك لاتقر بذلك الظلم الاجتماعى بين ابناء المجتمع ، ولا تترك الفقراء عرضة للحرمان والاهمال والمهانة ، بل توصى ببرهم ودفع غائلة الجوع والعرى عنهم ، وتنهى عن اذاهم وظلمهم .

بيد أن هذه الديانات تختلف فى الطرق التى سلكتها لتلك الغاية المحمودة ، ولحمل المجتمع على العناية بتلك الفئات الضعيفة .

وسنذكر فيما يلى نصوصا من القرآن الكريم ومن الكتب الدينية المعترف بها عند أصحاب الديانتين المسيحية واليهودية . تؤيد ما زعمناه من اتفاق الاديان الالهية فى موقفها من مشكلة الفقر .

## حديث القرآن عن عناية الأنبياء بمشكلة الفقر

يتحدث القرآن فى كل مناسبة عن وحدة الأديان الالهية فى أصولها التى بعث الله بها الانبياء والمرسلين فى دعوتهم الى عبادة الله وحده لاشريك له ، والى فعل الخير واتباع الحق ، ونشر المحبة والسلام بين الناس . والأخذ بالعدل ومجانبة الظلم .

ويوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » (١) وتعبيره صلى الله عليه وسلم بـ «أتمم» يشير الى الالتقاء مع الأنبياء السابقين فى الدعوة الى القيم الأخلاقية التى يقوم عليها بناء المجتمع .

ولا شك فى أن أكرم القيم الأخلاقية . بر الانسان بأخيه الانسان ، واحترامه له ، ورحمته به ، ومسارعته الى نجدته واسعافه عند الحاجة والفاقة ، والترفع عن ظلمه واهانته وهذا ماتواردت عليه تعاليم الأنبياء قاطبة كما يحدثنا القرآن بذلك .

فهو يقول عن ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٢) .

---

( ١ ) رواه الحاكم فى مستدركه .

( ٢ ) سورة الانبياء : ٧٣ .

ويقول عن اسماعيل عليه السلام : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (١) .

ويقول الله تعالى جوابا عن دعاء موسى عليه السلام بأن يرحمه الله وقومه : «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (٢) .

ويقول على لسان عيسى عليه السلام : « وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ( ٣) .

ومن وصايا الله تعالم للأمم السابقة وصيته لبني اسرائيل : «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ( ٤ ) .

وقال تعالى يخاطب بني اسرائيل أيضا : « وقال الله اني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » (٥) .

ويقول عن أهل الكتاب جميعا : « وما أمروا الى ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٦) .

فهذه الآيات قد جعلت «الزكاة » من وصايا الله لأنبيائه وعباده ، ومن وصايا الأنبياء لأقوامهم ، ومن المعلوم أن فرض الزكاة بالنظام الذى جاء به الاسلام ، أمر مبتكر ، لم يرد من قبل فى شريعة قط ، فيكون المراد بالزكاة فى تلك الآيات معنى البر والانفاق على الفقراء والمحتاجين .

ومما يحدثنا به القرآن عن دعوة نوح عليه السلام أن «كبراء» قومه من ذوى الجاه والنفوذ والغنى وهم المعبر عنهم « بالملأ » كان مما اتخذوه ذريعة للاعراض عن دعوته أنه لم يتبعه فى تلك الدعوة الا الفقراء والطبقات المهينة فى عرفهم :

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » (٧) وكان مما أجابهم به نوح على هذا الازدراء ممن معه من الفقراء « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم انى اذا لمن الظالمين » (٨) حقيقة كريمة يعلنها نبى كريم : ان الفقر لايمنع أصحابه من أن يكونوا من حملة الخير وأهل الفضل ! ان من يزعم ذلك يكون ظالما لنفسه باعتقاده غير الحق ، وظالما للفقراء بامتهانهم وتجريدهم من المكرمات ، وظالما للمجتمع باعلانه التفاوت الانسانى بين فئات المجتمع الواحد .

---

( ١ ) سورة مريم : ١٥٥
( ٢ ) الاعراف : ٥٦
( ٣ ) سورة مريم : ٣١
( ٤ ) سورة البقرة : ٨٣ .
( ٥ ) المائدة : ١٢
( ٦ ) البينة : ٤ .
( ٧ ) هود : ٢٧ .
( ٨ ) هود : ٣١ .